

صالح عن أبي الزاهري ، عن كثيرين مرة عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» ورواه أبو داود والنسائي من حديث مكحول عن كثيرين مرة بنحوه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .

وقوله «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» قال البخاري : قال سالم : الموت ، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر ، كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان ، حدثنا طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» قال : الموت . وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره ، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا «لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخافضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين» وفي الصحيح من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ «وما يدريك أن الله أكرمه ؟» فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ فقال «أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنني لأرجو له الخير» ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله .

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب» ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت ، كما قدمناه ، والله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها ، فإنه جواد كريم . آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين .

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ تَمُوتُ وَتُنْفَخُ الصُّورُ فَتَأْتُونَ أَصْفَادَكَ

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودونها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله «اقتراب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» ، وقال «اقتربت الساعة وانشق القمر» . وقوله «فلا تستعجلوه» أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه ، يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلزام ، كما قال : «يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب ، فقال في قوله «أتى أمر الله» أي فرائضه وحدوده ؛ وقد رده ابن جرير فقال : لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب ، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكديماً ، قلت : كما قال تعالى : «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد» .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن يحيى بن آدم ، عن أبي بكر بن عياش ، عن محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة ، عن كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن حنبل ، عن عتبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها : يا أيها الناس ، فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ، فممنهم من يقول : نعم ، وممنهم من يشك ، ثم ينادي الثانية : يا أيها الناس ، فيقول الناس

بعضهم لبعض : هل سمعتم ، فيقولون : نعم ، ثم ينادي الثالثة : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه قال رسول الله ﷺ «فوالذي نفسي بيده ، إن الرجلين ليشتران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشغفل الناس» ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به وغيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال «سبحانه وتعالى هما يشركون» .

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

يقول تعالى : «ينزل الملائكة بالروح ﷻ أي الوحي ، كقوله «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا هدي به من نشاء من عبادنا» وقوله «على من يشاء من عباده» وهم الأنبياء ، كما قال تعالى : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» ، وقال «الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس» وقال «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار» . وقوله «أن أنذروا» أي لينذروا «أنه لا إله إلا أنا فاتقون» أي فاتقوا عقوبي لمن خالف أمري وعبد غيري .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحق» ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاضع ربه تعالى ويكذبه ومحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدأ ، كقوله تعالى : «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً * ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً» . وقوله «أو لم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال «يقول الله تعالى : ابن آدم أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين يديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الخلقوم قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟» .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع كن أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ، ولهذا قال «ولكم فيها جمال حين تريحون» وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضرراً وأعلاء أسنمة «وحين تسرحون» أي غدة حين تبعثونها إلى المرعى «تحمل أثقالكم» وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها «إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس» وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ، وكقوله «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكن فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك محمولون» ، وقال تعالى : «الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتلبثوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك محمولون * ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون» ، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم

وَالْخَيْلَ وَالْإِنْعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فهنا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل . وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة ؛ فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف ، والله أعلم . وقال عبد الرزاق : أنبأنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشية ، فذلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريع الجنوب ، والله أعلم . فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال ، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نبه عن إنزاع الحمير على الخيل لثلا يقطع النسل . قال الإمام أحمد : حدثني محمد بن عبيد ، حدثنا عمر من آل حذيفة عنه عن الشعبي عن دحية الكلبي قال : قلت يا رسول الله ، ألا أحمل لك حماراً على فرس فتنتج لك بغلاً فتركها ؟ قال «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون» .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ، نه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى : ﴿وَتَزِدُّوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أنقلهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقال ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

قال مجاهد في قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال : طريق الحق على الله ، وقال السدي ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الإسلام . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول : وعلى الله البيان ، أي بين الهدى والضلالة . وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه ؛ وكذا قال قتادة والضحاك ؛ وقول مجاهد هنا أقوى من حيث السياق ، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنْهَا جَائِزٌ﴾ أي حائز مائل زائغ عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود ﴿وَمِنْكُمْ جَائِزٌ﴾ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيته ، فقال ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ وقال ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ

بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلوما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي جعله عذبة زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاباً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرة ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقاتدة وابن زيد في قوله فيه تسيمون ، أي ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي . وروى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس .

وقوله ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِثَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ؛ ثم قال تعالى .

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَنَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومنته الجسم في تسخير الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياءً ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره

وتسهيله ، كقوله ﴿إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْخَرَاتُ بَأْمَرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي للدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه . وقوله ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن ، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونا .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ تَكْوَنًا كَلَّوْا مِنْهُ لِحِمَاتٍ طَرِيقًا وَتَسْتَخْرِجُوا

مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبَغِدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ رَاوِسِبِلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ وَيَا لَتَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمَتَلَطِّمِ الْأَمَاجِ ، وَمَعْنَى عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَتَيْسِيرِهِمُ لِلرُّكُوبِ فِيهِ ، وَجَعَلَهُ السَّمَكُ وَالْحَيْتَانِ فِيهِ ، وَإِحْلَالَهُ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثُ وَمَيْتَهَا فِي الْحُلِّ وَالْإِحْرَامِ ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّآلِئِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَتَسْهِيلَهُ لِلْعِبَادِ اسْتِخْرَاجَهُمْ مِنْ قَرَارِهِ حَلْيَةً يَلْبَسُونَهَا ، وَتَسْخِيرَهُ الْبَحْرَ لِحَمْلِ السَّفَنِ الَّتِي تَمْخَرُهَا أَيْ تَشْقَى ، وَقِيلَ تَمْخَرُ الرِّيَّاحُ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ ، وَقِيلَ تَمْخَرُ بِجَوْجِئِهَا وَهُوَ صَدْرُهَا الْمَسْمُومُ - الَّذِي أَرْشَدَ الْعِبَادَ إِلَى صَنْعَتِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِثْرًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ السَّفْنَ ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ صَنْعَتِهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، يَسِيرُونَ مِنْ قَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، لِحَلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى مَا هُنَا ، وَمَا هُنَا إِلَى مَا هُنَاكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمه وإحسانه .

وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارُ فِي مُسْنَدِهِ : وَجَدْتُ فِي كِتَابِي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الْبَغْدَادِيِّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَلَّمَ اللَّهُ الْبَحْرَ الْغَرْبِيَّ وَكَلَّمَ الْبَحْرَ الشَّرْقِيَّ ، فَقَالَ لِلْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ : إِنِّي حَامِلٌ فِيكَ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي ، فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِيهِمْ ؟ قَالَ : أَغْرِقُهُمْ ، فَقَالَ : بَأْسُكَ فِي نَوَاحِيكَ ، وَأَحْلَمُهُمْ عَلَى يَدِي ، وَحَرَمْتُ الْخَلِيَةَ وَالصَّيْدَ ، وَكَلَّمَ هَذَا الْبَحْرَ الشَّرْقِيَّ فَقَالَ : إِنِّي حَامِلٌ فِيكَ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي ، فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمْ ؟ فَقَالَ : أَحْلَمُهُمْ عَلَى يَدِي وَأَكُونُ لَهُمْ كَالْوَالِدَةِ لَوْلَدِهَا ، فَأَثَابَهُ الْخَلِيَةَ وَالصَّيْدَ ؛ ثُمَّ قَالَ الْبَزَارُ : لَا نَعْلَمُ مِنْ رَوَاهُ عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَهُوَ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ . وَقَدْ رَوَاهُ سَهْلٌ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ أَبِي عِيَاشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مُوقُوفًا .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرُّوَاسِي الشَّائِخَاتِ ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ ، لِنَقْرِ الْأَرْضِ وَلَا تَمِيدَ ، أَيْ تَضْطَرِبَ بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْتَأُّ لَهُمْ عَيْشٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ ، سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ : لَمَّا خَلَقْتَ الْأَرْضَ كَانَتْ تَمِيدُ ، فَقَالُوا : مَا هَذِهِ بِمَقْرَةٍ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدًا ، فَأَصْبَحُوا وَقَدْ خَلَقْتَ الْجِبَالُ ، فَلَمْ تَدْرِ الْمَلَائِكَةُ مِمَّ خَلَقْتَ الْجِبَالُ . وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادَةَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمُورُ ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : مَا هَذِهِ بِمَقْرَةٍ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدًا فَأَصْبَحَتْ صَبْحًا وَفِيهَا رَوَاسِيهَا . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : حَدَّثَنِي الثُّنَيُّ ، حَدَّثَنِي حُجَّاجُ بْنُ مَنْهَالٍ ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ عَطَاءَ بْنُ السَّائِبِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَمَضَتْ وَقَالَتْ : أَيُّ رَبِّ تَجْعَلُ عَلَيَّ بَنِي آدَمَ يَعْمَلُونَ الْخَطَايَا وَيَعْمَلُونَ عَلَيَّ الْحَيْثُ ؟ قَالَ : فَأَرَسَى اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ مَا تَرَوْنَ وَمَا لَا تَرَوْنَ ، فَكَانَ إِقْرَارُهَا كَاللَّحْمِ يَتَرَجَّجُ . وَقَوْلُهُ ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ أَيْ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، يَنْبَغُ فِي مَوْضِعٍ ، وَهُوَ رِزْقُ لَاهِلِ مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَيَقْطَعُ الْبَقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ ، وَيَخْتَرِقُ الْجِبَالِ وَالْأَكَامَ ، فَيَصِلُ إِلَى الْبِلَدِ الَّذِي سَخَّرَ لَاهِلَهُ وَهِيَ سَائِرَةُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ وَيسرةٍ وَجَنُوبًا وَشِمَالًا . وَشَرْقًا وَغَرْبًا ، مَا بَيْنَ صَغَارٍ وَكِبَارٍ ، وَأَوْدِيَةٍ تَجْرِي حِينًا وَتَنْقَطِعُ فِي وَقْتٍ ، وَمَا بَيْنَ نَيْعٍ وَجَمْعٍ ، وَقَوِي السَّيْرِ وَبَطْئِهِ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيسرَ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ

فيها سبلاً أي طرقات يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ الآية .

وقوله ﴿وعلامات﴾ أي دلائل من جبال كبار وأكام صغار ونحو ذلك ، يستدل بها المسافرون برأ وبعراً إذا ضلوا الطرق . وقوله ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ أي في ظلام الليل ، قاله ابن عباس ، وعن مالك في قوله ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ يقول النجوم وهي الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمتها وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون ، ولهذا قال ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال ﴿إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لمعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتكم وتركتكم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازي على اليسر ، وقال ابن جرير : يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتّم وأنبتهم إلى طاعته واتباع مرضاته ، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ مَوْتٌ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، كما قال الخليل ﴿أنعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون﴾ . وقوله ﴿أموات غير أحياء﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة ، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّكْرَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾ لَّا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أجعل الألهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجائب﴾ وقال تعالى : ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستكبرون﴾ وقوله ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ولهذا قال ههنا ﴿لا جرم﴾ أي حقاً ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ لَكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : وإذا قيل هؤلاء المكذبين ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأولين﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هذا الذي ينزل علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذ من كتب المتقدمين ، كما قال تعالى : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة ، كما قال تعالى : ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فهمها قال خطأ ، وكانوا يقولون : ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما ﴿فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن

هذا إلا سحر يؤثر أي ينقل ويحكي ، فنفروا عن قوله ورأيه قبهم الله ، قال الله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلِمُونَ بغير علم﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليحتملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أي يصير عليهم خطيئة ضلالتهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم ، كما جاء في الحديث ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه ، لا ينقص ذلك من آثامه شيئاً وقال تعالى : ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَحْمِلُ مِنْهُمْ شَيْئاً﴾ وعلقتهم في آياتهم ، وهكذا روى المعوفي عن ابن عباس في الآية ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلِمُونَ بغير علم﴾ أنها كقوله ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَحْمِلُ مِنْهُمْ شَيْئاً﴾ وقال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف عنهم أطاعهم من العذاب شيئاً .

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّاهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا كَانُوا يَنْسَوْنَ
مِنْ فَوَاحِشِهِمْ وَأَنْتُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

قال المعوفي عن ابن عباس في قوله ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ قال : هو النمرود الذي بنى الصرح ، قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد نحوه . وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمرود ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره ، فمكث أربعمئة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بها رأسه وكان جباراً أربعمئة سنة ، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه ، ثم أماته ، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى : ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ وقال آخرون : بل هو بختنصر ، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا كما قال في سورة إبراهيم ﴿وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ وقال آخرون : هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة ، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجمل له أنذاده﴾ الآية .

وقوله ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي اجته من أصله وأبطل عملهم ، كقوله تعالى : ﴿كلما أوقدوا نارا للحراب أطفاها الله﴾ ، وقوله ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ، وقال الله ههنا ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يظهر فضائهم ، وما كانت تحجبهم فضايرهم فيجعله علانية ، كقوله تعالى : ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدوته ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان ، وهكذا هؤلاء يظهر الناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفرعاً لهم وموبخاً ﴿أين شركائهم الذي كنتم تشاققون فيهم﴾ تخاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ ﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ خَالَيْنَ أَنْفُسِهِمْ فَالْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبَاتِكُمْ كَاشِفُ الصُّرُوفِ ﴿٧٩﴾
فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَوْتٌ لَكُمْ فِيهَا أَلَمْ تُكْذِبُوا ﴿٨٠﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم وبعث الملائكة إليهم ليقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقوا السلم﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والإنقياد قائلين ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿والله ربنا ما كنا

مشركين ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ قال الله مكذبا لهم في قلوبهم ذلك ﴿بَلَى إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس ثوبى المتكبرين ﴿أَيُّ بَشٍ الْمَقِيلِ وَالْمَقَامِ وَالْمَكَانِ مِنْ دَارِ هَوَانَ لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّراً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ﴾ وهم يدخلون جهنم من يوم ماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وتخلدت في نار جهنم ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال الله تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ .

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ نَوَقْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئا إنما هذا أساطير الأولين ، هؤلاء قالوا خيرا ، أي أنزل خيرا ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر عما وعد الله عباده فيها أنزله على رسله فقال ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وقال لرسوله ﷺ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال ﴿ولنعم دار المتقين﴾ .

وقوله ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن ، أي مقام يدخلونها ﴿تُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . وفي الحديث «إن السحابة لتمر الملاء من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم ، فلا يشتهي أحد منهم شيئا إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أثربا فيكون ذلك» ، كذلك يجزي الله المتقين ، أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله ، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي غلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أِنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ توعدون﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿نزلا من غفور رحيم﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا : هل ينظرون هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ، قاله قتادة ، «أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال . وقوله ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيها هم فيه من العذاب والنكال ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به ، فلهذا أصابهم عقوبة الله على ذلك ﴿وحاق بهم﴾ أي

أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله ، فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ وَكَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي من البحائر والسواحب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكنتنا منه ، قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النهي ، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشرق والمغرب ، وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آتة يعبدون﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ فمشيئة تعالى الشرعية عنهم متفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فقال ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ . ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى : ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تمككه له من الله شيئاً﴾ وقال نوح لقومه ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾ كما قال الله ﴿من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وقال تعالى : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ . وقوله ﴿فإن الله﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي من أضله ، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي يتقدونهم من عذابه ووثاقه ﴿إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى غيبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف ، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أي استبعدوا ذلك ، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراًداً عليهم ﴿بلى﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي لا بد منه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر ، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد ، فقال ﴿ليبين لهم﴾ أي للناس ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي من كل شيء . ﴿ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ وليلملم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا ، وتقول لهم الزبانية ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء ، بقوله ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن ، كما قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن كائناً فيكون

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيها يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقال ابن أبي حاتم : ذكر الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، أخبرني عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى : شتني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ قال وقلت ﴿بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أما شتمه إياي فقال ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾ وقلت ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ . هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال ﴿لنبوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قال مجاهد ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فموضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم على رقاب العباد ، وصاروا أمراء حكاماً ، وكل منهم للمتين إماماً ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ، فقال ﴿ولَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي بما أعطيناهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ، ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل ؛ ثم قرأ هذه الآية ﴿لنبوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ . ثم وصفهم تعالى فقال ﴿الذين صبروا وعلىٰ ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم . ثم قال تعالى : ﴿فَإِنْ رَيْبُكُمْ لَهُمْ لِرُءُوفٍ رَحِيمٍ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ؛ كما ثبت في الصحيحين «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعانفهم» وفيها «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وقال تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُونَهُمْ أَظَلَّلَهُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ

﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جاداتها وحيواناتها ، ومكلفوها من الإنس والجن ، والملائكة ، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل ؛ وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم ، وقوله ﴿وهم داخرون﴾ أي صاغرون . وقال مجاهد أيضاً : سجد كل شيء فيوه ، وذكر الجبال ، قال : سجودها فيوه . وقال أبو غالب الشيباني : أمواج البحر صلاته ؛ ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال ﴿وَهوَ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كما قال ﴿وَهوَ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالَهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ . وقوله ﴿والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ويفعلون ما يؤمرون به﴾ أي سائرين على طاعته تعالى وامثال أوامره ، وترك زواجه .

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ إِتْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَكُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّكُمْ تَبْجُرُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ

إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿وله الدين واصله﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد : أي دائماً ؛ وعن ابن عباس أيضاً : أي واجباً . وقال مجاهد : أي خالصاً له ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض ، كقوله ﴿أفغير دين الله يخفون﴾ * وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكراً وإليه يرجعون ﴿هذا على قول ابن عباس وعكرمة ، فيكون من باب الخبر ، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب ، أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطاعة ، كقوله تعالى : ﴿ألا الله الدين الخالص﴾ ثم أخبر أنه مالك النفع والضر ، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به ، كقوله تعالى : ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ وقال مهنا ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ * ليكفروا بما آتيناكم ﴿قيل : اللام مهنا لام العاقبة . وقيل : لام التعليل بمعنى قبضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجهدوا نعم الله عليهم وأنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النعم ؛ ثم توعدهم قائلاً ﴿فتمتعوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة ذلك .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ

مَا يَشْتَهُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٧٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِٗٓ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ مَا يَدُسُّ فِيهِ الثَّرَابُ ﴿٧٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلَهُ أَلْمَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨٠﴾

يخبر تعالى عن قبياح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا ، هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي جعلوا لأهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانيه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم ، فقال ﴿تالله لتسلن بها كنتم تفترون﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولداً له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال ﴿الكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى﴾ . وقوله مهنا ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ أي عن قولهم وإفكهم ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإمام لكاذبون﴾ اصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون . وقوله ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ؛ فإنه ﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ أي كظيماً من الهم ﴿وهو كظيم﴾ ساكت عن شدة ما هو فيه من الحزن ، ﴿يتوارى من القوم﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يثدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي بش ما قالوا ، وبش ما قسموا ، وبش ما نسبوا إليه ، كقوله تعالى : ﴿وإذا بشر أحداكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ . وقوله مهنا ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿وله المثل الأهل﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ دَابَّةً وَلَكِنْ يُوَخَّضُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَيَأْتِيهِمْ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَاجِرَةً إِنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقهم مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم ، ولكن الرب جل جلاله يعلم ويستتر ، وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً . قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم ، وقرأ الآية ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾ وكذا روى الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم . وقال ابن جرير : حدثني محمد بن المنخني ، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي ، حدثنا محمد بن جابر الحنفي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، قال : فالتفت إليه ، فقال : بل والله حتى إن الحباري لتموت في وكرها بظلم الظالم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، أنبأنا الوليد بن عبد الملك ، حدثنا عبيد الله بن شرحبيل ، حدثنا سليمان بن عطاء عن سلمة بن عبد الله عن عمه أبي مشجعة بن ربعي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال . ذكرنا عند

رسول الله ﷺ فقال إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر .

وقوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لَّهُ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله .

وقوله ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحِسْبَى﴾ إنكار عليهم في دعاوهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم ، كقوله ﴿وَلْتَن أَذُقْنَا الْإِنْسَانَ مَنَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ أَنَّهُ لِيُثْبِتَ كَفُورٌ﴾ ولتن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب البساتين عني إنه لفرح فخور ﴿وَلْتَن أَذُقْنَاهُ رَحْمَةً مَنَا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلْتَن رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحِسْبَى فَلْيَنْبِشَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلْيَنْبِقِمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ . وقوله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا﴾ وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وما أظن الساعة قائمة ولتن رددت إلى ربِّي لأجدن خيراً منها منقلباً فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل ، كما ذكر ابن إسحاق أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواظ ، فمن ذلك : تعملون البساتين وتحجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب .

وقال مجاهد وقتادة ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحِسْبَى﴾ أي الغلمان . وقال ابن جرير ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحِسْبَى﴾ أي يوم القيامة كما قدمنا بيانه ، وهو الصواب ، والله الحمد ؛ وهذا قال تعالى راداً عليهم في تنبيههم ذلك ﴿لَا جُرْمَ﴾ أي حقلاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مَفْرُطُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ . وعن قتادة أيضاً : مفرطون أي معجلون إلى النار من الفرط ، وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعمل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون .

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُمْ يَوَافِقُ الَّذِينَ هُمْ يَكُونُونَ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَاهُ بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يبيدك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿فَهُوَ وَلِيَهُمْ الْيَوْمَ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريح لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ؛ فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُزَكِّيَنَّكُمْ فَإِنْ بَطُونَهُمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنَيْنِ فَدَرِّبُوهُنَّ حَالاً خَالِصَاتٍ لِلشَّرَّابِينَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

وَالْأَعْنَابِ تَنْخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : ﴿وَإِنْ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ أي آية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿تَنْفِيكُكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِمْ﴾ أفرد ههنا عوداً على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ، وفي الآية الأخرى مما في بطونها ، ويجوز هذا وهذا ، كما في قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظُرُهُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾

فلما جاء سليمان أي المال .

وقوله ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته ، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا يغيض به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذ الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك .

كما قال ابن عباس في قوله ﴿سكراً وورزقاً حسناً﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والورزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما ، وفي رواية : السكر حرامه ، والورزق الحسن حلاله ، يعني ما ييس منها من تمر وزبيب ، وما عمل منها من طلاء وهو الدبس ونخل ونبيذ ، حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ فناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها ، قال الله تعالى : ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون﴾ .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾

والمراد بالوحي هنا الإلهام والهداية ، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ، ومن الشجر وما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها وورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها ، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم ، والبراري الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه بمئة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل ، فتبني الشمع من أجنتها وتقي العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي مطيعة ، فجعلها حالاً من السالكة ، قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى : ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل بيوتهم من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر ، وهو أنه حال من الطريق ، أي فاسلكيها مذلة لك ، نص عليه مجاهد ، وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح . وقد قال أبو يعلى الموصلي : حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا مكي بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «عمر الذباب أربعين يوماً ، والذباب كله في النار إلا النحل» .

وقوله تعالى : ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها وماكلها منها . وقوله ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس ، أي من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من تكلم على الطب النبوي : لو قال فيه الشفاء للناس ، لكان دواء لكل داء ، ولكن قال فيه شفاء للناس ، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده .

وقال مجاهد وابن جرير في قوله ﴿فيه شفاء للناس﴾ يعني القرآن ، وهذا قول صحيح في نفسه ، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية ، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا ، وإما الذي قاله ذكره في قوله تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ والدليل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿فيه شفاء للناس﴾ هو العسل ، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنه ، فقال «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه

عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً ، فما زاده إلا استطلاقاً ، قال «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرئ . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت ، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرّة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والألام ببركة إشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، هذا لفظ البخاري : وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأظفسي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ «الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتي عن الكي» . وقال البخاري : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد الرحمن بن الغنيل عن عاصم بن عمر بن قتادة ، سمعت جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن كان في شيء من أدويتكم ، أو يكون في شيء من أدويتكم خير : ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدعة بنار توافق الداء ، وما أحب أن أكتوي» ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله أنبأنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ «ثلاث إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية تصيب الماء ، وأنا أكره الكي ولا أحبه» ورواه الطبراني عن هارون بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقرئ ، عن عبد الله بن الوليد ، ولفظه «إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم» وذكره ، وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه . وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني في سننه : حدثنا علي بن سلمة هو التغلبي ؛ حدثنا زيد بن حباب ، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن» وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجة مرفوعاً ؛ وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري موقوفاً وله شبه .

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة ، وليفسلها بماء السماء ، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها ، فليشربه عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء : أي من وجوه ، وقال الله تعالى : «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وقال «وأنزلنا من السماء ماء مباركاً» وقال «فإن طيبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً» وقال في العسل «فيه شفاء للناس» .

وقال ابن ماجة أيضاً : حدثنا محمود بن خداش ، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي ، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر ، لم يصبه عظيم من البلاء» الزبير بن سعيد متروك . وقال ابن ماجة أيضاً : حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الغريابي ، حدثنا عمرو بن بكر السكسكي ، حدثنا إبراهيم بن أبي عبله سمعت أبا أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول «عليكم بالسنا والسنوت ، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام» قيل : يا رسول الله وما السام ؟ قال «الموت» قال عمرو : قال ابن أبي عبله : السنوت الشبت . وقال آخرون : بل هو العسل الذي في زقاق السمن ، وهو قول الشاعر :

هم السمن بالسنوت لا لبس فيهم وهم يمنعون الجار أن يقردا

كذا رواه ابن ماجة ، وقوله : لا لبس فيهم أي لا خلط . وقوله : يمنعون الجار أن يقردا ، أي يضطهد ويظلم ، وقوله «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» أي إن في إلهام الله هذه الدواب الضعيفة الخلق إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الشار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء ، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِمَّنْ تُؤْمِنُونَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْذِنُ لَأَزَلَّ الْعَمْرُ لَكِنِّي لَا يَعْزُبُ عَنْكَ عِلْمُ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة ، كما قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الآية ، وقد روي عن علي رضي الله عنه : أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف ، وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال : لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف ؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعمور عن شبيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم ، وأرذل العمر وعذاب القبر ، وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات» وقال زهير بن أبي سلمة في معلقته المشهورة .

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تحطىء يعمر فيهم

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ

اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ؛ فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم عما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ الآية ؛ قال الموفى عن ابن عباس في هذه الآية : يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني ؛ فذلك قوله ﴿أفبينهم الله يمجدون﴾ وقال في الرواية الأخرى عنه : فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم . وقال مجاهد في هذه الآية : هذا مثل الألهة الباطلة ، وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله ، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا ، فالله أحق أن ينزهه منك .

وقوله ﴿أفبينهم الله يمجدون﴾ أي أنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرت والأنعام نصيباً ، فمجحدوا نعمته ، وأشركوا معه غيره . وعن الحسن البصري قال : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري : واقع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلا ، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخلقه ؛ رواه ابن أبي حاتم .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ

يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بين آدم ذكورا وإناثا ، وجعل الإناث أزواجا للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد ؛ قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : وبنين وحفدة ، وهم الولد وولد الولد . وقال سنيد : حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بنوك حيث يمجدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك ، قال جميل :

حفد الولائد حولهن وأسلمت
بأسكنهن أزمنة الأجل

وقال مجاهد : بنين وحفدة ابنة وخادمه وقال في رواية : الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طائوس وغير واحد : الحفدة الخدم . وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولد وولد ولدك ، قال الضحاك : إنما كانت العرب تخدمها بنوها . وقال

العوفي عن ابن عباس قوله ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ يقول : بنو امرأة الرجل ليسوا منه ، ويقال : الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل . يقال : فلان يحفد لنا أي يعمل لنا ، قال : وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس ، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي ، ورواه عكرمة عن ابن عباس ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هم الأصهار .
قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخله في معنى الحفدة ، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك تسعي ونحفد ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار ، فالنعمة حاصلة بهذا كله ، ولهذا قال ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ قلت : فمن جعل ﴿وحفدة﴾ متعلقاً بأزواجكم ، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار ، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة ، وكذا قال الشعبي والضحاك ، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته ، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكتم «والولد عبد لك» رواه أبو داود . وأما من جعل الحفدة الخدم ، فعنده أنه معطوف على قوله ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً .

وقوله ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المطاعم والمشارب . ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك ترأس وتربع ؟» .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَضُرُّهُ أَمْثَالُ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق ، وحده لا شريك ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، أي ليس لهم ذلك ، ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشياءاً وأمثالا ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قال العوفي عن ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ؛ وكذا قال قتادة ؛ واختاره ابن جرير ؛ فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق والرزق الحسن ، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن ؛ وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بينا لا يجمله إلا كل غبي قال الله تعالى : ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ
بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٩﴾

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كل أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أينما يوجهه﴾ أي يبعثه ﴿لا يأت

بخير ﴿ ولا ينجع مسعاه ﴾ هل يستوي ﴿ من هذه صفاته ﴾ ومن يأمر بالعدل ﴿ أي بالقسط ﴾ ، فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ وقيل : الأبيكم مولى لعثمان ، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخراساني ، واختار هذا القول ابن جرير .

وقال العوفي عن ابن عباس : هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم ، وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن الصباح البزار ، حدثنا يحيى بن إسحاق السالحي ، حدثنا حماد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن إبراهيم عن عكرمة ، عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ قال : نزلت في رجل من قريش عبده ، يعني قوله ﴿ عبداً مملوكاً ﴾ الآية ، وفي قوله ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ إلى قوله - وهو على صراط مستقيم ﴾ قال : هو عثمان بن عفان : قال : والأبكم الذي أبنا يوجهه لا يأت بخير ، قال : هو مولى لعثمان بن عفان ، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فترلت فيها .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾
وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

بحر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب ، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، كما قال ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين ، وهكذا قال ههنا ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعنكم إلا كنفس واحدة ﴾ ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون به الأصوات والأبصار التي بها يحسون المراتب والأفئدة ، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده . وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى ، فيستعين بكل جراحة وعضو وقوة على طاعة مولاه .

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « يقول تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبه ، ولئن استعاذ بي لأعيذه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله أي ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل ، مستعيناً بالله في ذلك كله ، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي تمشي بها « في يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي » ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ كقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تمحشرون ﴿ ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء بحملها ويسير الطير كذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ وقال ههنا ﴿ إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثْنًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ

أَكُنَّا وَجَعَلْ لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَرَفَعُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوا بِهَا وَكَثُرَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم ، يأوون إليها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضا من جلود الأنعام بيوتا أي من الأدم ، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والخضر ، ولهذا قال ﴿تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها﴾ أي الغنم ، ﴿وأوبارها﴾ أي الإبل ، ﴿وأشعارها﴾ أي المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿أثنا﴾ أي تتخذون منه اثنا وهو المال ، وقيل : المتاع ، وقيل : الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة ، وقال ابن عباس : الأثاث المتاع ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة . وقوله ﴿إلى حين﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم .
وقوله ﴿والله جعل لكم ما خلق ظللاً﴾ قال قتادة : يعني الشجر ﴿وجعل لكم من الجبال أكتافاً﴾ أي حصوناً ومعاقل ، كما ﴿جعل لكم سرايل تقيكم الحر﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وسرايل تقيكم بأسكم﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك ، ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي هذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لعلكم تسلمون﴾ هكذا فسر الجمهور ، وقرءوه بكسر اللام من تسلمون أي من الإسلام .

وقال قتادة في قوله ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم . وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسي ، عن شهر بن حوشب ؛ عن ابن عباس أنه كان يقرؤها ﴿تسلمون﴾ بفتح اللام ، يعني من الجراح ، رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد ، وأخرجه ابن جرير من الوجهين ، ورد هذه القراءة . وقال عطاء الخراساني : إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿والله جعل لكم ما خلق ظللاً وجعل لكم من الجبال أكتافاً﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثناً ومتاعاً إلى حين﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ لعجمهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿سرايل تقيكم الحر﴾ وما بقي من البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر .
وقوله ﴿فإن تولوا﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان ، فلا عليك منهم ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ وقد أدبته إليهم ﴿يعرفون نعمته الله ثم ينكرونها﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ فقال الأعرابي : نعم ، قال ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ الآية ، قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك ، يقول الأعرابي : نعم حتى بلغ ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ فولى الأعرابي ، فأنزل الله ﴿يعرفون نعمته الله ثم ينكرونها﴾ الآية .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَارَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَارَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَشْرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَاطَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وأنه يعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها ، يشهد عليها

بما أجاته فيها بلغها عن الله تعالى : ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ أي في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كقوله ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ فلماذا قال ﴿ولا هم يستعتبون﴾ وإذا رأى الذين ظلموا أي الذين أشركوا ﴿العذاب فلا يخفف عنهم﴾ أي لا يفر عنهم ساعة واحدة . ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جاء بهم نجاه يسعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فيشرق عني منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا وبكذا ، وتذكر أصنافاً من الناس ، كما جاء في الحديث ، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى : ﴿إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ ، وقال تعالى : ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ وقال تعالى : ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون .

ثم أخبر تعالى عن تيري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ فالقوا إليهم القول إنكم لكاذبون أي قالت لهم الآلهة : كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وقال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ الآية ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله ﴿والقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع ، وكقوله ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ ، وقال ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية ، وقال ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت . وقوله ﴿والقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجبر .

ثم قال تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾ الآية ؛ أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿وهم يتهون عنه ويتلون عنه﴾ أي يتهون الناس عن اتباعه ويتعدون منه أيضاً ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم﴾ وما يشعرون﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم ، كما قال تعالى : ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله في قول الله ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال . وحدثنا سريج بن يونس ، حدثنا إبراهيم بن سليمان ، حدثنا الأعمش عن الحسن ، عن ابن عباس في الآية أنه قال ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وبعضها في النهار .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا

لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله عمداً ﷺ ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمتك ، أي أذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال له رسول الله ﷺ «حبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه : فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

وقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء .

الغداة ؛ فقال «وما رأيته فعلت ؟» قال : رأيته شخص بصرك إلى السماء ، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك ؛ قال «وقطنت لذلك ؟» فقال عثمان : نعم ، قال رسول الله ﷺ «أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس» قال : رسول الله ؟ قال «نعم» ، قال : فما قال لك ؟ قال «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية ، قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ ، إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ؛ ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً . حديث آخر عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك ، قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب ، عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره فقال «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة» «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية ؛ وهذا إسناد لا بأس به ، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين ، والله أعلم .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنْ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلُهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَنْ تَأْخُذُوا بَأَيْمَانِكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُ كُفُّهُ اللَّهُ بِهِ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَحِلُّونَ ﴿١٢﴾

هذا ما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، ولهذا قال «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» ولا تعارض بين هذا وبين قوله «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم» الآية ، وبين قوله تعالى : «ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم» أي لا تركوها بلا كفارة ، وبين قوله عليه السلام فيها ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحملتها» وفي رواية - وكفرت عن يميني - لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا ، وهي قوله «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في قوله «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» يعني الحلف ، أي حلف الجاهلية . ويؤيد ما رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبه - حدثنا ابن غير وأبو أسامة عن زكريا . هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم عن أبيه ، عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ «لا حلف في الإسلام ، وأما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة» وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبه به . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه .

وأما ما ورد في الصحيحين عن عاصم الأحول عن أنس رضي الله عنه أنه قال : حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا ؛ فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك ، والله أعلم . وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عمار الأسدي ، حدثنا عبد الله بن موسى ، أخبرنا أبو ليلى عن بريدة في قوله «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» قال : نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام ، فقال «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» لا يحملكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ، ثم قال : أما بعد فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدره فلان ، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يدأ ولا يسرف أحد منكم في هذا الأمر ، فيكون فصل بيني وبينه» المرفوع منه في الصحيحين . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عباس عن أبيه ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من شرط لأخيه شرطاً لا يريد أن يقي له به ، فهو كالملدلي جاره إلى غير منفعة .

وقوله «إن الله يعلم ما تفعلون» تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها . وقوله «ولا تكونوا كالثي نقضت

غزها من بعد قوة أنكاثا قال عبد الله بن كثير والسدي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد إنبرامه . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزها أم لا . وقوله «أنكاثا» يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزها أنكاثا أي أنفاضا ، ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أي لا تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ، ولهذا قال بعده «تتخذون إيمانكم دخلا بينكم» أي خديعة ومكرا «أن تكون أمة هي أربى» أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئثوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فهي الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه ، فلأن ينهي عنه مع المتمكن والقدرة بطريق الأولى .

وقد قدمنا - والله الحمد - في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم ، وهم غارون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عبسة : الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمداه» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش ، قال ابن عباس «أن تكون أمة هي أربى من أمة» أي أكثر ، وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنها عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه . وقوله «إنا يلوكم الله به» قال سعيد بن جبير : يعني بالكثرة ، رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير : أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد «وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون» فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْذِكُمْ بِبَعْذٍ ثَوْبَتَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول الله تعالى : «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة» ، كقوله تعالى : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا» أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافا ولا تباعد ولا شجاعة «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» ، وهكذا قال ههنا «ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء» ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على القليل والنفير والقطمير . ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا أي خديعة ومكرا لئلا تزل قدم بعد ثوبتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاده عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الخائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين ، فأنصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال «وتذوقوا السوء بما صدتكم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم» .

ثم قال تعالى : «ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا» أي لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحدافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وأمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال «إن كنتم تعلمون» ما عندكم ينفد أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل محدود محصور بمقدور متناه «وما عند الله باق» أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول «ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» قسم من الرب تعالى مؤكدا باللام ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى ، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحياه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة ؛ وكذا قال ابن عباس وعكرمة وهوب بن منبه ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أنها هي السعادة . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة . وقال الضحاك هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا ، وقال الضحاك أيضاً : هي العمل بالطاعة والإنشراح بها ؛ والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله .

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه» ؛ ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ به . وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجهني ، عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «قد أفلح من هدي للإسلام ، وكان عيشه كفافاً وقنع به» . وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا همام عن يحيى ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة . وأما الكافر فيظلم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» ، انفرد بإخراجه مسلم .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٥٨﴾ إِنَّهُمْ لَمُسلُّطُونَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

﴿١٥٨﴾ إِنَّهُمْ سُلْطَانُهُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٩﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر نذير ليس بواجب ، حكى اءلاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة . وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسطة في أول التفسير ، والله الحمد والمنة . والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ؛ وحكى عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة ، واحتجوا بهذه الآية ، ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة ، والله أعلم .

وقوله ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ قال الثوري : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون : معناه لا حجة له عليهم . وقال آخرون كقوله ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ، ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ قال مجاهد : يطيعونه ، وقال آخرون : اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وهم به مشركون﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى . وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُبَيِّنُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

﴿١٦٠﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦١﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿إنما أنت مفتر﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد «بدلنا آية مكان آية» أي ورفعتها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة : هو كقوله تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية ؛ فقال تعالى عجباً لهم ﴿قل نزل به روح القدس﴾ أي جبريل ﴿من ربك بالحق﴾ أي

بالصدق والعدل ﴿لَيْسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ، ونحبت له قلوبهم ﴿وَهَدَىٰ بِشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي جعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّاتِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مِثِّثٌ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى : راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ وهذا لسان عربي مبين ﴿أَيِ الْقُرْآنِ ، أَيِ كَيْفِ يَتَعَلَّمُ مِنْ جَاءِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَمَعَانِيهِ النَّامَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَمِي ؟ لَا يَقُولُ مِنْ لَهُ أَدْنَىٰ مَسَكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ .

قال محمد بن إسحاق بن يسارة في السيرة : كان رسول الله ﷺ - فيها بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبعة غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لبعض بني الحضرمي ، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ وهذا لسان عربي مبين ﴿وَكَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ ؛ وَعَنْ عِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ : كَانَ اسْمُهُ يَعِيشُ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطُّوسِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ عَنْ مُسْلِمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَلَاثِي ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ قِيْنَا بِمَكَّةَ ، وَكَانَ اسْمُهُ بُلْعَامُ ، وَكَانَ أَعْجَمِي اللِّسَانِ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالُوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بُلْعَامُ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ وهذا لسان عربي مبين ﴿، وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ : هُوَ سُلَيْمَانُ الْفَارِسِيُّ ، وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَسُلَيْمَانُ إِذَا اسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ : كَانَ لَنَا غُلَامَانِ رُومِيَانِ يَقْرَأَانِ كِتَابَهَا لَهَا بِلِسَانِهَا ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِهِمَا فَيَقُومُ فَيَسْمَعُ مِنْهُمَا ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : يَتَعَلَّمُ مِنْهُمَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَقَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : الَّذِي قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارْتَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَافْتَرَىٰ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، قُبِحَ اللَّهُ .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسوله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ ، كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرُ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿١٥٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٥٩﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد إيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به ، أنه قد غضب عليه لعلمهم بإيمان ثم عدوهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يبد الله قلوبهم ويشتمهم على الدين الحق ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم ، ﴿ولا جرم﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة - وأما قوله ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فهو استثناء من كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بإيمان بالله ورسوله .

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية . وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك . وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزري ، عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : «كيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئناً بإيمان . قال النبي ﷺ : «إن عادوا فعد» ورواه البيهقي بأبسط من ذلك ، وفيه أنه سب النبي ﷺ ، وذكر أهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكر أهتهم بخير ، قال : «كيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئناً بإيمان ، فقال «إن عادوا فعد» ، وفي ذلك أنزل الله ﷻ ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بإيمان﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحد ، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيط لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن عكرمة أن غلياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال «لا تعذبوا بعذاب الله» وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷻ «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال : ويح أم ابن عباس ، رواه البخاري . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوي ، عن أبي بردة قال : قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن ، فإذا رجل عنده ، قال : ما هذا ؟ قال : رجل كان يهودياً فأسلم ، ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين ؛ فقال : والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه ، فضربت عنقه ، فقال : قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال «من بدل دينه فاقتلوه» وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له : تنصر وأنا أشرك في ملكي وأزوجهك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذا أقتلك ، فقال : أنت وذاك ، قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر ، وفي رواية ببقرة من نحاس فاحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها ، فرفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى فطمع فيه ودعاه ، فقال : إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله . وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع من الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن لأشتمك بي ، فقال له الملك : فقبل رأسي وأنا أطلقك ، فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبداً ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنها .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَتْ أَشْيُهُمْ جَنَّهَتُهُمْ وَأَصْبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها ، أي تلك الفعلة وهي إهلاجة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي تحتاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يجاح عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزداد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيراً .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَتَخَفَتِ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يَجِيءُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ ، وهكذا قال ههنا ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي هيناً سهلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ فكفرت بأنعم الله ﴿إِذْ جَعَلْتَ آيَاتِهِ عَلَيْهَا وَأَعظَمَهَا بِمَحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ وهذا بدؤهم الله بحالهم الأولين خلافها ، فقال ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيئ إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسب يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلhez وهو وبر البعير يخلط بدمه إذ نحروه .

وقوله ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعث الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا﴾ الآية ؛ وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم آمناً ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لاهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكاها مالك عن الزهري رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثني ابن عبد الرحيم البرقي ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول : سمعت سليم بن غير يقول : صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فارساً أرسلت إليهما تسألها فقالا : قتل . فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ قال ابن شريح : وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه إنه كان يقول إنها المدينة .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٤﴾
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ. فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٧٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه النعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا ﴿فمن اضطر إليه﴾ أي احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ، والله الحمد . ثم نهى تعالى عن سلوك المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك ، بما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم ، فقال ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئاً مما حرم الله ، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه ، وما في قوله ﴿لما تصف﴾ مصدرية ، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم توعده على ذلك فقال ﴿إن الذين يفترون على الله ، الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال ﴿نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ وقال ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
 عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٩﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أُرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الأضرار والتضييق والأغلال والخرج ، فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما - إلى قوله - لصادقون﴾ ولهذا قال ههنا ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي فاستحقوا ذلك ، كقوله ﴿فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً﴾ ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿لغفور رحيم﴾ .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٠﴾ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ آجِبَتِهِ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٨١﴾ وَآيَاتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨٢﴾ ثُمَّ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية ، فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأمّا الأمة : فهو الإمام الذي يقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين عن أبي العبيدين أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت ، فقال : الأمة معلم الخير ، والقانت : المطيع لله ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلم الناس دينهم ، وقال الأعمش عن يحيى بن الجزار عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكان ابن مسعود رق له ، فقال : أخبرني عن الأمة ، فقال : الذي يعلم الناس الخير .

وقال الشعبي : حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ؛ فقلت في نفسي : غلط أبو عبد الرحمن ، وقال إنما قال الله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال : تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : الله أعلم ، فقال : الأمة الذي يعلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ ؛ وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود ، أخرجه ابن جرير . وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده ، والقانت المطيع . وقال مجاهد أيضاً : كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار . وقال قتادة : كان إمام هدى ، والقانت المطيع لله . وقوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي قانتاً بشكر نعم الله عليه ، كقوله تعالى : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به . وقوله ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ، ثم قال ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي . وقوله ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ . وقال مجاهد في قوله ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لسان صدق . وقوله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه ، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وما كان من المشركين ﴿كَقَوْلِهِ فِي الْأَنْعَامِ﴾ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴿دِينًا قَبِيلاً﴾ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ﴾ .

إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه ، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره بإياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواليقهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى بن مريم ، فيقال إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها ، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع ، وإن النصراني بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة ، والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً والنصارى بعد غداه لفظ البخاري . وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : أصل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، والمقصي بينهم قبل الخلائق رواه مسلم .

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ؛ وقوله ﴿وَجَادِثُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية ، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ . وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية ، أي قد علم الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حشرات ، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هِدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ .-

وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يأمر تعالى بالعدل في الفصاح والمماثلة في استيفاء الحق ، كما قال عبد الرزاق عن الثوري عن خالد ، عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى : ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله ؛ وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير . وقال ابن زيد : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب . فنزلت هذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالجهاد . وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة ، وهي مكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به ، فقال رسول الله ﷺ ولئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ؛ فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم .

وقد روي هذا من وجه آخر متصل ، فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه ، أو قال لقلبه ، فنظر إليه وقد مثل به ، فقال رحمه الله عليك كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك ؛ فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر الآية ؛ فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك ، وهذا إسناده فيه ضعف ، لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة ؛ وقال البخاري : هو منكر الحديث ، وقال الشعبي وابن جريج : نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لنمثلن بهم فأنزل الله فيهم ذلك .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسنده أبيه : حدثنا هذبة بن عبد الوهاب المروزي ، حدثنا الفضل بن موسى ، حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ؛ فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا نعرف قريش بعد اليوم ، فنأدى مناد : إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً

وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ «نصبر ولا نعاقب» وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والتدب إلى الفضل كما في قوله ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ثم قال ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ الآية . وقال ﴿والجروح قصاص﴾ ثم قال ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ وقال في هذه الآية ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ ثم قال ﴿ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين﴾ .

وقوله تعالى : ﴿واصبر ما صبرك إلا بالله﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا يتال إلا بمشيئة الله وإعانتة ، وحوله وقوته ؛ ثم قال تعالى : ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ولا تك في ضيق﴾ أي غم ﴿عما يمكرون﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم . وقوله ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ وقوله لموسى وهارون ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ وكقوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ وكما قال تعالى : ﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً﴾ الآية ؛ ومعنى ﴿الذين اتقوا﴾ أي تركوا المحرمات ، ﴿والذين هم محسنون﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم ، وقال أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا مسعر عن عون عن محمد بن حاطب قال : كان عثمان رضي الله عنه من الذين اتقوا والذين هم محسنون . آخر تفسير سورة النحل ، والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .